سبعة عيون

بقلم: محمّد الشرادي

سبع نسوة سمينات يحطن بسريريها.عانقتها إحداهن وسلّمتها ورقة خضراء رُسمت عليها سبع أعين. ثمّ توجّهت إلى صديقاتها و أخبرتهن أنّ السفر إلى سبع عيون شاقّ وطويل، و عليهنّ الانصراف في الحال إذا كنّ يحرصن على الوصول في رابعة النّهار. قفزت هند من سريرها مذعورة، ثم خرجت، و القلق يؤجّج في عقلها الأسئلة.. بعد الرّجوع من عملها الذي تعيش من راتبه الشّهري في رغد واضح، قرّرت أن تؤدّي صلاة الاستخارة، لعلّها تهتدي إلى السّرّ الكامن في هذا الحضور الكثيف للعدد سبعة في حياتها هذه الأيّام، وإلى سرّ ذلك المكان – سبع عيون – ولماذا اختلفت أحجام تلك العيون؟ الأولى كبيرة...الثّانية أصغر... الثّالثة تقلّ حجما عن الثّانية...و العيون المتبقيّة هي الأصغر لكنّها أكثر جحوظا.

في الحقيقة، ليست هند غريبة عن أجواء العدد سبعة. عاشت ردحا طويلا من عمرها بين أحضان طقوسه المترعة بالأحلام والابتهالات والقرابين والأحزان.

في قريتها القريبة جدّا من قرى القرون الغابرة. فتحت عينيها، و عقلها ، وقلبها على - سبع رواضي — تلك المقابر السّبع المسكونة بالأرواح، والملائكة، وبسبعة ضُمّان يضمنون النّاس عند ربّهم في الدّنيا و الآخرة. تنهّدت تنهيدة حارة، مصحوبة بكلمات مغلّفة بعواطف مبهمة:

آه يا سبع رواضى. يا بنك الوجع. لكلّ قرويّ فيك حساب جارٍ من الألم...رصيد كبير من الابتهالات، والتّضرّعات...من المعجزات، والخيبات. تحت ثراك ينام رميم أجدادنا، وقد أسبغ عليها العدد سبعة كراماته، فصارت لها مكانة في العقول و القلوب. يا لغرابة هذا العدد. يحفّ بنا كالهواء من كلّ الجهات. يندسّ في ثنايا حياتنا...يتسرّب إلى معتقداتنا...يضفي على أوهامنا، وخرافاتنا قداسة لا تقهر.

ثم يأتيها صوت زوجة أبيها مفعما بالحيوية والرهبة، وهي تردّد الحكاية نفسها، مرات عديدة :

سبع رواضى، رحاب طاهرة. كلّما عزّ المطر، وعطش الزّرع، وجفّ الضّرع. وقف جدّي القديم، في الغسق بين القبورمبتهلا متضرعا، فتنزل من السّماء خيمة عظيمة، ينصبها النّاس للأكل وطلب الغيث، وما يكاد النّهار ينتصف؛ إلّا والمطر يهطل مدرارا، و شآبيب الرّحمة تبهج النّاس، وتبلّل ثيابهم و قلوبهم .

تستطيع زوجة أبيها التّحدّث بثقة كبيرة. أمّا هي فذكرياتها مع كلّ شيء مقرون بالعدد سبعة، تتسم بغموض يمتزج فيه التّردّد بالخوف. وقصّتها مع سبع رواضي كانت مؤلمة. سيظلّ ألمها يعتصر قلبها إلى الأبد، وكلّما سنحت لها الفرصة حكتها بحسرة عميقة :

يوم مشؤوم. كانت فيه الأرض وكأنّها تريد الالتحام بالشّمس التي صارت فوق هاماتنا. تصهر أمخاخنا، و نقي عظامنا .

خلت أزقة القرية الضيّقة من البشر و البهائم و الطّير. لتحتلّها حمم الشّمس الحارقة، و الظّلال الرابضة أمام البنايات والأشجار

كحيوانات سقيمة. ابتلعت جميع الكائنات أصواتها، باستثناء جداجد احتمت بجحورها، و طفقت تضغط على الأعصاب بأزيزها المسترسل. في ذلك اليوم، تبيّن لمحمّد، حبّي الأوّل والأخير أنّ العوم في النّهر وحده القادر على التخفيف من غلواء هذا الحرّ. ظلّ يسبح حتّى دنت الشّمس من المغيب. اقترب من ملابسه. كانت هناك تتربص به أفعى ضخمة نفثت سمّها في جسمه. نزل الخبر على قلبي كالصّاعقة. صعدت التّلّ الذي تستريح على سفحه المقابر السبع. تضرّعت ...ابتهلت ابتهالا حارا... سالت دموعي. قربّت ذبيحة سمينة. تركتها هناك للأرواح، و الملائكة وسبعة ضمّان. لكنّهم قابلوا تضرّعي و ابتهالي بخذلان كبير. دفن عمّي ابنه في فناء بيته. ودفن معه قلبي، و رغبتي في الزّواج إلى الأبد. ثم عرّج على سبع رواضي بصق هناك، وأوصى أن تدفن جثّته بعيدا عن تلك المقابر، و عن بركاتها الزّائفة .

أيمكن لخيباتها المتكرّرة مع هذا العدد أن تقلّل من هيبته في قلبها؟ بالطبع لا.مازال يفتنها، وإن لم يكن كما في السابق، فقد ظلّ قابعا في دواخلها.

احتجبت الشمس خلف السحب الكثيفة الصباح كله، و الأفق كان مكفهرا ينذر بعاصفة قوية. فجأة، دخلت المكتب فتاة في مقتبل العمر.توجهت صوب زميلة هند في العمل. قبلت رأسها،ثم يديها.أدركت هند أنها أيضا ابنة أخرى لصاحبتها. عندما انصرفت و تحت تأثير المفاجأة سألتها هند .

-أليس عندك أولاد...أعني الذّكور؟

دوّى السّؤال في مسامعها دويّا قويّا...بينما ارتجفت شفتاها ارتجافا عنيفا. لم تصغ زميلتها لاعتذارها.. قاطعتها، والكلام يتدفّق من فمها بحرقة بالغة :

فتحت البعبع لينفلت منه مارد الذكريات الأليمة. كلّ ذريتي بنات. لا أعترض على ذلك. لكنّ حماتي و زوجي يريدان ولدا. صرت أصدّق الجميع. مرّة أعطاني فقيه أعشابا كثيرة.. طلب منّي أن أخلطها مع الماء، وأغتسل به سبعة أيّام متوالية، وألا أختلي بزوجي إلّا في اليوم السّابع، ونحن مستلقيان على الجانب الأيمن؛ لأنّ في التيمّن بركة. لكنّ الولد لم يأت. قبل البطن السّابع زرت أضرحة سبعة رجال بالترتيب الذي نصحتني به أمّي. عندما كنت

أغادر الضّريح الأوّل، ارتمى صبيّ صغير في حضني، و قبّلني قبلة حارة، ولما انشغلت بانتعال حذائي اختفى.

صرت أعتلي زوجي في السّرير؛ لأنّ هذه الوضعية تمنحني إمكانية أن يكون رأسي مرتفعا إلى السّماء، مطلّا على أضرحة سبعة رجال. وفي حالة الهيجان، سالت من عيني دموع حارّة...امتزج الماء بالماء.. سمعت أحشائي تزغرد.. و رأيت جسمي يتوهّج...يتوهّج...حتّى غشي غرفة النّوم نور ساطع يكاد يخطف الأبصار، و في رحم تلك الهالة النّورانيّة رأيت سبعة أقمار تبتسم لي، ومعهم الولد الذي قبّلني في حضرة الشّيخ الأوّل من شيوخ سبعة رجال. فجاء الولد المنتظر، بهيّا جميلا. أحببناه بكلّ ما أوتينا من قوّة، لكنّ الأقدار كانت تخبّئ لنا رجّة عنيفة، في السّنة السّابعة من عمره أصابه الجذام فمات .

كانت كلّ كلمة من كلمات زميلتها تنفجر في القاعة كقنبلة صوتيّة تمزّق طبلة أذنيها. بالكاد حملتها رجلاها. ألقت بنفسها داخل سيارتها :

أيجوز أن يكون سبعة رجال بهذه القسوة؟ يتلاعبون برغبة أمّ كلمى يمنحونها الولد، ثم يسلبونها إيّاه ؟!

اهتمامها بمأساة صديقتها التي خلّفت في قلبها حرقة كبيرة، و تزامُن الحدث مع العطلة الأسبوعية، جعل هند تقرّر السّفر بعيدا، دون أن تحدّد وجهة لسفرها .

ضغطت على المكبح حتّى أنَّت الطريق تحت العجلات. كانت هناك إشارة طرقيّة. مسحت الزّجاج الأماميّ، ومن خلفه قرأت "سبع عيون". لم تصدّق عينيها. كانت الإشارة تشير إلى الجهة التي تهبّ منها ريح سموم تحرق البشرة، و تحمل معها غبارا كثيفا يحجب النّظر. التفتت يمنة ويسرة.. لا أحد تسأله. فقط كانت هناك طريق تمتد على طول البصر، في منعرجات حادّة: – أيّ بركة كامنة في هذا العدد الغريب؟ كلّ ما ينسب إليه حقيقيّ. كنت أعلم في قرارة نفسي أنّ هذا المكان موجود، وأنا الآن، لا أشك في رونقه وجماله. و ما يمكن لعيون سبع أن تسبغه عليه من خير و بركات. خاصّة تلك العين الكبيرة. لابدّ أنّها ستكون غزيرة عذبة.

انطلقت تقود سيّارتها في تلك الطّريق، وما كادت تصعد عقبة نطاء حتّى انتصبت أمامها علامة كبيرة، لكنّها صدئة، بالكاد تقرأ من تحت صدئها "سبع عيون". وقفت مشدوهة، لم تصدّق ما

تراه عيناها. كلّ الأحلام الورديّة التي رسمتها حول هذا المكان تبدّدت في لمح البصر. هل تكون هذه الخيبة الأخرى الحدّ الفاصل بينها و بين البركات المزعومة لهذا العدد، أم أنّ افتتانها بكراماته أكبر من أن ينغصها أيّ شيء.

لم تجد الكلمات المناسبة لتصف بؤس ذلك المكان، الذي امتدّ أمامها قفرا يبابا.. و النّاس يركضون خلف البهائم المحمّلة بالبراميل؛ ليقطعوا مسافات طويلة من أجل قطرة ماء عكرة. استوقفت أحدهم، و سألته .

أين توجد العيون السبع؟ و خاصّة تلك العين الكبيرة .

لا أظنّك تودّين معرفة ذلك. وفي ماذا يمكن أن يفيدك الأمر؟

ألحّت عليه، وأخبرته أنّ الأمر مهمّ جدّا، وعليه ستبني مواقف كثيرة .

العيون السّبع يا سيدتي هم: القايد..الخليفة..الشّيخ...و أربعة مقدّمين. شغلهم الشّاغل هو إحصاء أنفس النّاس.